﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التّوبة: 109 - 110]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

حـالُ المنافقين والمـؤمـنـين، وبـنـيـانُ كـلٍّ منهما، واختلافُ البُنيانَيْن ذاتًا ووَصْفًا وإضافةً

بعد أن بيّنتِ الآيتان السّابقتان حالَ أولئك المنافقين الّذين اتّخذوا مسجدَ الضِّرار لأهدافٍ واضحةٍ فَضَحَها القرآنُ وكَشف زَيْفَها، ونهَى المؤمنين عنِ الصّلاة فيه مبيِّنًا أنّ المسجدَ الأوّلَ الّذي أُسّسَ على التّقوى أحقُّ بالصّلاة فيه، بَيَّن هنا مآلَ هذا البناءِ وعاقبتَه في الدّنيا والآخرةِ، ناعيًا عليهم فعلَتَهمُ الشّنيعةَ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُنْيَٰنَهُۥ﴾: (بني) أَصلٌ؛ وهو بِنَاءُ الشَّيءِ بِضمِّ بعضِهِ إلى بَعْضٍ. تقول: بنيتُ البناءَ أَبْنيه، البَنْيُ: نقيضُ الهَدْمِ، بَناهُ يَبْنيه بَنْيًا وبِناءً وبُنْيانًا. والبِناءُ: المَبْنِيُّ، والبُنيان واحدٌ لا جمع، وقد ورد في القرآن على أَوجهٍ: بمعنى الصَّرْحِ، والقَصْرِ العالي: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النّحل: 26] أي: صَرْحَهم. وبمعنى المسجد: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾، ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾ أي: مسجدُهم[1]، فقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ﴾ فالبنيانُ: مصدرٌ كالغُفرانِ، ويُراد به المَبنيُّ هاهنا[2].

2) ﴿شَفَا﴾: (شفي) الشِّينُ والفاءُ والحرفُ المُعْتَلُّ يدلُّ على

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفِيروزابادي، القاموس: (بني، بنى)، وبصائر ذوي التّمييز: 277/2.
(2) الواحديّ، البسيط: 11/52.

الإشْرافِ على الشَّيءِ؛ يقالُ: أَشْفَى على الشَّيْءِ إذا أَشْرفَ عليه. وشفا كلِّ شيءٍ: طَرَفُه وحَرْفُه. ومنه: أَشْفَى إذا سارَ في شفا القمرِ، وهو آخرُ اللَّيْلِ، وشفا البئر، وشفا النّهر: طرفُهُما[1]، ومنه قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾، أي: على حرْف جُرُفٍ هَائِر[2].

3) ﴿جُرُفٍ﴾: (جرف) أَصْلٌ؛ وهو أَخْذُ الشَّيءِ كلِّه هَبْشًا. يُقال: جَرَفْتُ الشَّيءَ جَرْفًا، إذا ذَهَبْتَ بِهِ كُلِّه. والجرُفُ: المكانُ يأكُلُهُ السَّيْلُ. قال ﷺ: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾[3]، "والجرفُ: ما ينجرفُ بالسّيولِ منَ الأوديةِ"[4].

4) ﴿هَارٍ﴾: (هور) أَصْلٌ يدلُّ على تَساقُطِ شَيءٍ. الهَوْرُ: مصدرُ هارَ الجرفُ يهورُ، إذا انصدعَ من خلفِه، وهو ثابتٌ بعدُ في مكانه، وهو جُرف هارٍ هائِرٌ، فإذا سقط فقد انهار وتهوَّر. وهارَ البناءَ هَوْرًا: هَدَمَه. وهَارَ البناءُ والجُرْفُ وانهارَ؛ أي: انهدَمَ[5]. وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾؛ أي: ساقطٌ مُتَداعٍ، تَهوَّر البناءُ: إذا سقط وانهار[6]، وقوله: ﴿فَٱنْهَارَ﴾، أي: "طاح به الباطلُ في نار جهنّمَ"[7].

5) ﴿رِيبَةً﴾: (ريب) أَصْلٌ يدلُّ على شَكٍّ، والرَّيْبُ والرِّيبةُ: الشَّكُّ، والظِّنَّةُ، والتُّهَمَةُ. والرّيبَةُ: اسمٌ منَ الرَّيْب، قال تعالى: ﴿بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾، أي: تدلّ على دَغَلٍ وقلّةِ يقينٍ[8]. وفي الرّيبةِ في الآية ثلاثةُ أقوال؛ أحدُها: شكًّا ونفاقًا، لأنّهم كانوا يحسبون أنّهم مُحسِنون في بنائه. والثّاني: حسرةً وندامةً، لأنّهم ندموا على بنائه. والثّالثُ: أنّ المعنى: لا يزال هدمُ بنيانِهم حزازةً وغَيْظًا في قلوبِهم[9].

6) ﴿تَقَطَّعَ﴾: (قطع) أَصْلٌ يدلُّ على صَرْمٍ وَإِبانَةِ شَيءٍ مِنْ شَيءٍ، القطْعُ: فَصلُ الشّيء مُدْرَكًا بالبصر كالأجسام، أو مدرَكًا بالبصيرة كالأشياء المعقولة، فمن ذلك قَطْعُ الأعضاء نحوَ قوله تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾، وقولِه: ﴿إِلَّآ

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أسّ، أسس).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 167.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (جرف).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 167.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (هور).
(6) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 167.
(7) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/711.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ريب).
(9) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/301.

أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: إلّا أن يموتوا[1]، فتُقَطَّعَ قلوبُهم؛ "أي: تُجعلَ قلوبُهم قِطعًا، وتُفَرَّقَ أَجْزاءً؛ إمّا بالسّيف وإمّا بالحزن والبكاءِ، فحينئذٍ تزولُ تلك الرّيبةُ"[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يستوي مَن أسَّس بنيانَه على تقوى اللّه وطاعتِه ومَرضاتِه، ومَنْ أسَّس بنيانَه على طرفِ حُفرةٍ متداعيةٍ للسّقوط، واللّه لا يهدي القومَ الظّالمين المتجاوِزين حدودَه، ولا يزالُ بنيانُ المنافقين الّذي بنَوْه مُضارَّةً لمسجد (قُباء) شكًّا ونفاقًا ماكثًا في قلوبهم، إلى أن تتقطّع قلوبُهم بقتلِهم أو موتِهم، أو بنَدَمِهم غايةَ النّدم، وتوبتِهم إلى ربّهم، وخوفِهم منه غايةَ الخوف، واللّه عليمٌ بما عليه هؤلاء المنافقون منَ الشّكّ وما قصدوا في بنائِهم، حكيمٌ في تدبير أمورِ خلْقِه[3].

التّقوى والرِّضوانُ أساسُ الأمانِ لقوّةِ البُنيانِ، ولن يَثبُتَ بُنيانٌ على شَفا جُرُفٍ هارٍ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ الفضلِ: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ﴾:

الجملةُ في قوله ﷻ: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾ استئنافيَّةٌ، سيقَتْ لبيان خيريّةِ الرّجالِ إثرَ بيانِ خيّريةِ مسجدِ قُباء[4]. فالجملةُ "تفريعٌ على قوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ لزيادة بيانِ أحقّيّةِ المسجد المؤسَّسِ على التّقوى بالصّلاة فيه، وبيانِ أنّ تفضيلَ ذلك المسجدِ في أنّه حقيقٌ بالصّلاة فيه تفضيلٌ مسلوبُ المشاركةِ؛ لأنّ مسجدَ الضِّرار ليس حقيقًا بالصّلاة فيه بعْدَ

إنّما تتفاضلُ المباني، بتفاضُلِ مَنْ بَنَوْها، نيّةً ومقامًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قطع).
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/149، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 147.
(3) جماعة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/204.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/337، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/400.

النّهي"[1]، وفُصلتِ الآيةُ عن سابقتِها لكمالِ الانقطاعِ لاختلاف الخبريّةِ والإنشائيّةِ.

بَلاغةُ الاستفهام وغرضُه، في سياق الآيةِ الكريمةِ:

تقريرُ خيريّةِ بناءِ الدّينِ، على صَلاحِ النّيّةِ، ورُسوخِ اليقينِ

الاستفهامُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾ ليس حقيقيًّا، بل هو استفهامٌ مجازيٌّ جاء للتّقرير[2]؛ لأنّ مَن أُسّس بنيانُه على ذلك الوصْفِ معلومٌ أنّه خيرٌ منَ المذكور بعدَه، فالاستفهامُ ليس للسّؤال بل للتّقرير والتّعجيب. وتقريرُ الخبرِ بأسلوب الاستفهامِ أبلَغُ منَ الإخبار الصّريح؛ لأنّه يسوقُه مساقَ حقيقةٍ لا شكّ فيها بين المختلفَيْن، إذ هي محلُّ اتّفاقٍ.

معنى الفاءِ، في عبارةِ الاستفهامِ ﴿أَفَمَنْ﴾:

الفاءُ عاطفةٌ على جملةٍ محذوفةٍ، تُكملُ الدّلالةَ، وتُبينُ عنِ المعنى

قدّم في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾ حرفَ الاستفهامِ على حرف العطْفِ لأحقّيّةِ الاستفهامِ بالتّصدير[3] عند جمهورِ النّحْويّين، ولوجودِ جملةٍ محذوفةٍ بين الفاءِ العاطفةِ وحرفِ الاستفهامِ عند المحقّقين منهم، وتقديرُه: "أَبَعْدَ ما عَلِم حالَهم فمَن أسّس ووَضَع بناءَه الّذي بناه؟"[4].

معنى (مَن) في: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ﴾:

اسمُ الموصولِ الدّالُّ على العمومِ؛ لتعميم تعلُّقِ الحُكمِ بكلّ بانٍ على ذلك الوصْفِ

في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾ عبّرَ عنِ المذكور باسم الموصولِ (مَن) تعميمًا للحُكْم؛ فَساقَه مساقَ الحقيقةِ. والحُكمُ العامُّ لا يختصّ بأحدٍ، فهو ليس مختصًّا بقصّةِ مسجدِ الضِّرار، وليس المرادُ شخصَ واحدٍ بعينِه، بل كلُّ شخصٍ في كلّ زمانٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/33.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/84.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/34.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/57، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/103.

بَلاغةُ توجيهِ القراءاتِ المتواترةِ في: ﴿أَسَّسَ﴾:

قُرِئَ قولُه ﷻ: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ﴾ بالبناءِ للفاعلِ (أَسّسَ) وهي قراءة الجمهورِ القُرّاء، وللمفعول (أُسِّس) وهي قراءة نافعٍ وابنِ عامر[1]، "فأمّا قراءةُ مَن قرأ: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ﴾ فبنى الفعلَ للفاعل؛ فلِأنّه البانيَ والمؤسِّسَ، فأسندَ الفعْلَ إليه، وبناه له كما أضاف البُنيانَ إليه في قوله: ﴿بُنْيَٰنَهُۥ﴾، فكما أنّ المصدرَ مضافٌ إلى الفاعل، كذلك يكونُ الفعلُ مبنيًّا له. ومَنْ بنَى الفعْلَ للمفعول به لم يَبْعُد أن يكونَ في المعنى كالأوّل؛ لأنّه إذا أُسِّس بنيانُه فتولّى ذلك غيرُه بأمْرِه كان كبُنيانِه هو له"[2]، فالبناءُ للمفعول فيه إيجازُ حَذْفٍ للعلْمِ بالفاعل، وللدّعوةِ للانشغالِ بالفعلِ نفسِه عنه.

التّقوَى هي المعيارُ في الأفضليّةِ، لا أن يُبنَى المسجدُ بيدِ صاحبِه أو بأمْرِه

سرُّ التّعبيرِ وفائدتُه: ﴿بُنْيَٰنَهُۥ﴾:

عبّرَ عنِ البناء في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ﴾؛ لأنّ البناء يكونُ بضَمِّ بعضِه إلى بعضٍ، وهذا يدلُّ على الجُهدِ المبذولِ فيه، وجاء بصيغةِ المصدرِ، فالبُنيانُ مصدرٌ كالغُفران والكُفران، والمرادُ به المفعولُ، أيّ: المَبْنِيّ[3]، "وإطلاقُ لفظِ المصدرِ على المفعول مجازٌ مشهورٌ، يُقال: هذا ضَرْبُ الأمير، ونَسْجُ زيدٍ، والمرادُ: مضروبُه ومنسوجُه"[4].

التّعبيرُ عنِ المفعولِ بالمصدرِ، منَ المجازِ المرسلِ البليغِ

نُكتةُ إضافةِ البُنيانِ، وعَوْدِ الضّميرِ:

في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ﴾ أضافَ البُنيانَ إلى الضّميرِ العائدِ على الموصولِ للدّلالةِ على "صاحبِ البناءِ ومُستحقِّه، فإضافةُ البُنيانِ إلى ضميرِ (مَنْ) إضافةٌ على معنى اللّام"[5]، فلا

حُكمُ البناءِ يتعلّقُ بصاحبِه، لا باليدِ الّتي تبنيه

(1) آل نصر، طلائع البِشْر، ص: 204.
(2) الفارسيّ، الحجّة: 3/152.
(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/449، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/34.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/148.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/34.

فرقَ بين أن يبنيَ البناءَ بيده، أو يبنِيَه له الصّالحُ منَ الأعمالِ، فتدلُّ الإضافةُ على أنّ عاقبة الأمرِ عائدةٌ على هذا الباني إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ.

بَلاغةُ الاستعارةِ، في تأسيسِ البُنيانِ على التّقوى:

الـدّيـنُ يُـشْـبِـهُ الـبـنـاءَ، في احتياجِه لقواعدَ ومـرافـقَ تهيّئُه للانتفاعِ به

في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾، شبّهَ الدّينَ الصّحيحَ ببناءٍ قويٍّ متينٍ على طريقة الاستعارةِ، أي: بنَى دينَه على قاعدةٍ وأساسٍ مُحْكَمٍ وهو تقوَى اللّه تعالى وابتغاءُ مَرضاتِه[1]، فلمّا "كان من شأن الأساسِ أن تُطلبَ له صلابةُ الأرض لدوامِه؛ جُعلتِ التّقوَى في القصْدِ الّذي بُنِيَ له أحدُ المسجدَيْن، فَشُبِّهتِ التّقوى بما يَرتكزُ عليه الأساسُ على طريقةِ المكنيّةِ، ورُمِز إلى المشبَّه به المحذوفِ بشيءٍ من مُلائماتِه وهو حرفُ الاستعلاءِ"[2]. والمعنى: أفمن أَسّس دينَه على قاعدةٍ مُحْكَمةٍ بحُسْنِ النّيّةِ فيه وقصْدِ وجْهِ اللّه تعالى وإظهارِ شرعه، كما صُنِعَ بمسجدِ (قُباءٍ) ومسجدِ النّبيِّ ﷺ خيرٌ أم مَن أَسّس على قاعدةٍ هي أضعفُ القواعد وأقلُّها بقاءً، وهو الباطلُ؟[3].

نُكتةُ تنكيرِ لفظَيْ: ﴿تَقْوَىٰ﴾ و﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾:

لـلـتّـقـوى شـأنٌ عظيمٌ، ومكانةٌ رفيعةٌ، عند الله العظيمِ

عبّرَ عنِ (التّقوى) في قوله ﷻ: ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾ بصيغة التّنكيرِ تعظيمًا لشأنها؛ لأنّها سِيقت للمقابَلةِ مع الباطلِ للاستعارةِ، فلمّا "استعار الجُرُفَ الهائرَ لمقابل التّقوى منَ الباطل الّذي هو الفجورُ والنّفاقُ والضِّرارُ على أنّه شبَّهَ الحقَّ الّذي هو التّقوى بقاعدةٍ مُحكَمةٍ قويّةٍ على طريق الاستعارة بالكنايةِ؛ ولهذا نكّرَ التّقوى للتّعظيمِ"[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/103.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/34.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/85، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/312، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/149.
(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/448.

فائدةُ التّعبيرِ بالمصدرَيْن: ﴿تَقْوَىٰ﴾ و﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾:

في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾ جَمعَ بين التّقوى والرّضوانِ المصدَرَيْن لبيانِ علَّةِ خيّريّةِ البناءِ "يعني طلبَ ببنائِه المسجدَ الّذي بناه تقوى اللّهِ ورِضاهُ"[1]، ولأنّ الطّاعةَ إنّما تكونُ للرّغبة والرّهبةِ؛ ولذلك عُطفَ الرّضوانُ على التّقوى، وجُعلا كأنّهما أمران مُتلازمانِ[2].

لا تكونُ طاعةٌ إلّا بالتّرغيبِ والتّشويقِ، للجزاءِ العاجلِ والآجلِ

نُكتةُ تقديمِ (التّقوى) على (الرّضوان):

قدّمَ التّقوى في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾ على الرّضوان؛ لأنّ التّقوى تسبقُ الرّضوانَ، وهي الطّريقُ إليه، والتّقوى هي السّببُ الّذي يستجلِبُ الرّضوانَ، فقدّمه تقديمَ السَّبَبِ على النّتيجةِ.

التّقوَى تَسبقُ الرّضوانَ، وهي أصلٌ وأساسٌ له

معنَى (مِن) في: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾:

عبّرَ عن سببِ التّقوى بقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾ فـ(مِن) تعليليّةٌ سببيّةٌ، فالتّقوى كائنةٌ بسببِ اللّه تعالى؛ أي للخوفِ من عقاب اللّه[3]، والخوفِ منه ﷻ، وهذا يدلُّ على قوّة سلامةِ النّيّةِ والمقصدِ.

تقوى اللهِ تعالى، تكونُ خوفًا منه لذاتِه، ورهبةً من عذابِه ومَغبّاتِه

الموقعُ النّحويُّ والصّرفيُّ لـ ﴿خَيْرٌ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾، أسند الخيرَ إلى الاسمِ الموصولِ في قوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ﴾ فـ ﴿خَيْرٌ﴾ خبرٌ عنِ المبتدأ (مَن)[4]، وهو اسمُ تفضيلٍ محذوفُ الهمزة للتّخفيفِ، والمفاضلةُ منزوعةٌ في هذه الآيةِ، فهو في هذه الآية تفضيلٌ، ولا شركةَ بين الأمرَيْن في الخيريّةِ إلّا باعتبارِ مُعتقَدِهم[5].

لا اعتبارَ للمفاضلةِ في الخيريّةِ بين المسجدَيْن، إلّا باعتبارِ اعتقادِ المنافِقين

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/408.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/148 - 149، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/448.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/148 - 149.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/78.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/85، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/212.

نُكتةُ تنكيرِ: ﴿خَيْرٌ﴾:

ما أُسِّس على التّقوَى، هو الأفضلُ مطلَقًا، في كلِّ الظّروفِ والصُّروفِ

جاء المسنَدُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿خَيْرٌ﴾ نكرةً؛ لأنّه دلّ على المفاضلةِ بالخيريّةِ على أيّ قَدْرٍ ضئيلٍ منَ الخير، فإنّ المسجدَ الّذي بُنِيَ على أساسِ التّقوى والرّضوانِ هو الأفضلُ مهما كان مقدارُ الخيرِ الّذي وُضِعَ أساسًا للمقارنة، سواءً أكان قليلًا أم كثيرًا.

معنى ﴿أَم﴾ و﴿مَّنْ﴾:

الاستفهامُ بهمزةِ التّسويّةِ، لا يكونُ معناه على الاستفهامِ، بل على الإخبارِ

قوله جلّ شأنُه: ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾، عطفَ بـ (أم) المتّصلةِ، وَإِنَّمَا سُمّيت مُتَّصِلَةً؛ لِأَنّ ما قبلهَا وما بعْدها، لَا يُسْتَغْنَى بأحدِهما عنِ الآخر، وَتُسَمّى أَيْضًا معادلةً؛ لمعادلتِها للهمزة في إِفادَة التَّسْوِيَة، وهي لا تسْتَحقُّ جَوابًا؛ لِأَنّ المَعْنى معها لَيْسَ على الاسْتِفْهام، وأَنّ الكلامَ معها قابلٌ للتّصديق والتّكذيب لِأَنَّهُ خبرٌ[1]. والمعطوف (مَنْ) عُطفَ على (مَن)، في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾، وخبرُها محذوفٌ تقديرُه: خيرٌ[2]، ومعنى الكلام: أفمن أسّس بنيانَه على التّقوى خيرٌ، أم مَنْ أسّس بنيانَه على الضّلال خيرٌ؟!

نُكتةُ الإظهار موضعَ الإضمارِ في: ﴿بُنْيَـٰنَهُۥ﴾:

أظهرَ الاسمَ إيماءً إلى اختلاف الذّاتِ، باختلافِ الصّفاتِ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ وَضَع الاسمَ الظّاهرَ موضعَ ضميرِه، فلم يَقُل: (أم مَنْ أَسّسه) "للإيذانِ باختلاف البُنيانَيْن ذاتًا مع اختلافهما وَصْفًا وإضافةً"[3]، فلو أَضْمَر لاحْتَمَل أنّ المرادَ البناءُ ذاتُه، فلمّا كرَّر ذِكْرَه بَيَّن أنّ ما اختَلَف الوصفُ فيه كان مختلِفًا على الحقيقةِ، فأَظهَر الاسمَ لكونِه غيرَ الأوّلِ.

بَلاغةُ التّشبيهِ المفرَّعِ عنِ الاستعارةِ المكنيّةِ في الآية:

في قوله تعالى: ﴿أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾، تمثيلٌ مُفَرَّعٌ

(1) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 61.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/212، درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/174.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/103.

عنِ الاستعارةِ المكنيّةِ بتشبيهِ الدّين ببناءٍ على الأرض الصُّلبةِ، فشبَّه النّفاقَ ببناءٍ على طَرفِ جُرُفٍ آيلٍ للسّقوطِ، فهو "تمثيلُ حالةِ هدْمِه في الدّنيا وإفضائِه ببانيه إلى جهنّمَ في الآخرة؛ بانهيار البناءِ المؤسَّسِ على شفا جُرفٍ هارٍ بساكنِه في هُوَّة، وجَعلَ الانهيارَ به إلى نار جهنّمَ إفضاءً إلى الغاية منَ التّشبيه، فالهيئة المشبَّهةُ مركَّبةٌ من محسوسٍ ومعقولٍ، وكذلك الهيئةُ المشبَّهُ بها"[1]، ومعنى تأسيس البناءِ على طرف جُرُفٍ هارٍ أنّه بُنيَ بفسادِ نيّةٍ، وبقصْدِ التّفريقِ بين المؤمنين[2].

تشبيهُ مآلِ النّفاقِ إلى النّارِ، ببناءٍ مُشرِفٍ على السُّقوطِ

نُكتةُ تنكيرِ: ﴿جُرُفٍ﴾:

آثَرَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أن يُعبِّرَ عنِ الجرُفِ بالتّنكير؛ لأنّه أرادَ مُطلَقَ الجُرفِ، وهو يصحُّ في أيّ جُرُفٍ اتَّصفَ بذلك، ولا مزيّةَ لكونِه جُرفًا معيَّنًا، فالتّمثيل عامٌّ لا يَقصدُ به مكانًا بعينه، ويمكنُ أن يكون التّنكيرُ للتَّحقيرِ والتّقليلِ من شأن هذا البناءِ.

تنكيرُ الجُرُفِ لصلاحِ التّمثيلِ بكلِّ جُرُفٍ، آيلٍ للانهيارِ

بَلاغةُ المقابلةِ بين الحالَيْن: التقوى والرضوان، والسقوط في النيران:

قوله جلّ شأنُه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾ قابَلَه قولُه ﷻ: ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾؛ فوَضَع الرّضوانَ والتّقوى مقابلَ البناءِ الّذي يَسقطُ في نار جهنّمَ، فيُفهَمُ منه أنّ تأسيسَ الّذي يقابلُه على أمرٍ يحفظُه عنِ النّار، يوصِلُه إلى الرّضوانِ وما يقتَضيه من دخول الجنّةِ[3]، "فَهُمْ لمّا بَنَوه لقصدِ التّقوى ورضَى اللّهِ تعالى، ولم يُذكرْ ما يقتضي خيبَتَهم فيه كما ذُكرَ في مقابله؛ عُلم أنّهم قدِ اتّقوا اللّهَ

التّقوى هي حصنُ النّجاةِ الحصينُ، والنّفاقُ سبيلُ الهلاكِ المهينِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/34، ويُنظر: الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/312، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/149.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/85.

(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/448، ويُنظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/103.

بذلك وأرضَوْه، ففازوا بالجنّة، كما دلّت عليه المقابلةُ، وأنّ البُنيانَ الثّاني لم يحصلْ غرضُ بانيه وهو الضِّرارُ والتّفريقُ، فخابوا فيما قصَدوه فلم يثبتِ المقصدُ، وكان عدمُ ثباتِه مُفضيًا بهم إلى النّار كما يُفضي البناءُ المنهارُ بساكنِه إلى الهلاكِ"[1].

دَلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿هَارٍ﴾:

الدّينُ المؤسَّسُ على الرَّيبِ، وطَلَبِ السُّمعةِ، واهنٌ ضعيفٌ

قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ﴾ يعبّرُ عن تخرّقِ الجرفِ بفعل السُّيولِ حتّى يشرفَ على السّقوطِ، وهو اسمُ فاعلٍ أصلُه (هائر)، مشتقّ من (هار البناء) إذا تصدّعَ[2]، فعبّر عن هذه الصّفةِ باسم الفاعلِ للدّلالةِ على حدوثِ هذه الصّفةِ فيه ودوامِها حتّى يؤولَ إلى السُّقوط، فهذه الصّفةُ مستمرّةٌ فيه تحدثُ حينًا بعد حين لا يمكنُ إصلاحُها، وفي ذلك مبالغةٌ في الدّلالة على إفضاء البناءِ إلى السّقوط على وجهِ التّأكيد، ويمكنُ أن يُرادَ من اسم الفاعلِ اسمُ المفعولِ على معنى جرفٍ مُنهارٍ.

معنى الفاءِ في ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ﴾:

ما أسرعَ ما أدّى بهم باطِلُهم إلى النّارِ، وبئسَ القرارُ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ عطفَ الانهيارَ على التّأسيس بالفاء[3]، للدّلالة على أنّ الانهيارَ لم يتأخّر، وهو تصويرٌ لسرعةِ إفضاءِ الباطلِ بصاحبِه إلى سوء المصيرِ[4]، ولو عطف بغير الفاء لفاتَ معنى التّعقيبِ والسّرعةِ.

نُكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿فَٱنْهَارَ﴾:

سقطَ بناؤهُم بلا تماسكٍ، سُقوطًا سريعًا، فلا عملَ صالحًا يُمسكُه

عبّرَ في قوله ﷻ: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ عن سقوطِهم في النّار بانهيار البناءِ بهم، لما في الانهيارِ من دلالةٍ على سقوطٍ لا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/35، ويُنظر: البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/98، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/365.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/20، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/35.

(3) درويش: إعراب القرآن وبيانه: 4/174.

(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/448.

تماسُكَ معه[1]، فكما دلَّ العطفُ بالفاء على سرعة الانهيارِ بعد التّأسيس؛ دلّت مادّةُ الفعل(هار) على سرعة السّقوطِ والانحلالِ، وكما دلّت على ذلك صيغةُ (الانفعال) بما فيها منَ المطاوَعةِ بلا مقاومةٍ، وكلُّ ذلك يشعرُ بسرعةِ الهُوِيِّ إلى مُنقلَبِهم البئيسِ.

بَلاغةُ الجناسِ: ﴿هَارٍ فَٱنْهَارَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿هَارٍ فَٱنْهَارَ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، حيث ورد لفظان من جذرٍ واحدٍ، فذكرَ (الانهيار) بعد (هارٍ) اهتمامًا به وتأكيدًا على تَحَقُّقِهِ، وفي صيغة المطاوعةِ دليلٌ وإشارةٌ إلى أنّ الانهيارَ كان معلومًا لهم، ولكن عَمِيَت عيونُهم عنه، مع ما يُحدِثُه ذلك اللّفظُ من جمالٍ لفظيٍّ بتَكرار اللّفظِ المتشابهِ، المُفضي إلى التّنبيهِ على المعنى المرادِ.

تَكرارُ اللّفظِ للإشعارِ بأنّ الثّاني كان معلومًا لهم، من أوّلِ البناءِ

معنَى الباءِ: ﴿بِهِۦ﴾ وعوْدِ الضّميرِ:

تدلُّ الباءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ على المصاحَبَة، أي: انهارَ البناءُ "وهو فيه آمنٌ من سقوطه بقِلّة عقلِه وسفاهةِ رأيه"[2]، وقد جاء حرف الباءُ في غاية الحُسن؛ إذ ليس المرادُ انهيارَ البناء وحسبُ، بلِ انهيارُه ببانيه وهو مستقرٌّ آمنٌ، ويدلّ الاستقرارُ في البناء مع علمه أنّه بناه على جُرفٍ هارٍ آيلٍ للسّقوط على قلّة العقلِ وسوء التّقديرِ، وكلُّ ذلك ذمٌّ لمسلك المنافقين، وقد تكونُ الباء للسّببيّةِ، على معنى أنّه انهارَ بسبب كونِه على شفا جرفٍ هارٍ.

فَداحةُ الخُسران، انهيارُ البُنيانِ بِصاحبِه الّذي يأوي إليه، فينهارُ كلُّ شيءٍ

فائدةُ الإضافةِ ﴿نَارِ جَهَنَّمَ﴾:

في قوله عزّ ذِكْرُه: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾، أضاف النّارَ إلى جهنّم، ولو عبّرَ بأحدهما لكان المعنى مفهومًا، ولكنْ لن يكونَ على

التّأكيدُ بالإضافةِ، سبيلٌ إلى وضوحِ الدّلالةِ، وقوّةِ المعنَى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/20.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/20.

قوّة المعنى ذاتِها التّي تدلّ عليها الإضافةُ، فإضافةُ النّارِ إلى جهنّم أفادتِ التّأكيدَ وقوّةَ المعنى؛ حيث ذكرَ النّارَ باسْمَيْن من أسمائِها، إيغالًا في بيان سوءِ مُنقلبِهم وفداحةِ خُسرانِهم.

معنَى (الواو) في جملةِ نفْيِ الهدايةِ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

بيانُ استئنافِ نفْيِ العَجَبِ، عن مصيرِ الفريقَيْن

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، يُمكن أن تكونَ استئنافيّةً افتُتحت بواو الاستئناف[1]، وسيقتِ الجملةُ مساقَ التّعليلِ، فلمّا ذَكرَ مصيرَ أعمالِ الفريقَيْن، أُجيبَ بأنّه "لا عجبَ؛ لأنّ الأمرَ بيد الله، لا مفرَّ من قضائه، وهو قد هدى الأوّلَ إلى ما فيه صلاحُه، ولم يهدِ الثّاني لِما عَلِم فيه من عدم قابليّةِ الخيرِ"[2]، ويمكنُ أن تكونَ عاطفةً على قوله: ﴿فَٱنۡهَارَ﴾، من باب عطْفِ عقوباتِهم بعضِها على بعض، فضلًا عنِ احتمال كونِها حاليّةً، على معنى: فانهار بناؤهم، والحالُ أنّ الله لا يَهديهم لِظُلمِهم.

فائدةُ التّعبيرِ بلفظِ الجلالة ﴿وَٱللَّهُ﴾:

ثبتَ ضلالُهم بنفْيِ هدايةِ الله تعالى لهم، ومَنْ أضلَّه الله فما له من هادٍ

افتُتِحَ قوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، بلفظ الجلالةِ؛ تعظيمًا لمضمون الجملةِ؛ إذ إنّ لفظَ الجلالةِ يؤثّرُ بتعظيم ما يأتي في حيّز الجملةِ التّي يردُ فيها، فالمعنى في الآية: أنّ الله تعالى الّذي له كمالُ العظمةِ، والّذي لا هدايةَ لأحدٍ سواه، سَلَب الهدايةَ عنهم فلا هاديَ لهم غيرُه، فدلّ ذلك على كمال ضلالِهم وانقطاعِ الهداية عنهم على أبلغِ وصْفٍ؛ ولذا جاء الفعلُ مضارعًا دالًّا على تجدّد انتفاءِ الهدايةِ عنهم، وهذا التّجدّدُ والاستمرارُ يناسبُ تأكيدَ انقطاعِ الهدايةِ عنهم.

فائدةُ توسُّطِ النّفْيِ بين المسنَدِ إليه والمسنَدِ الفعليّ:

جاء النّفْيُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

(1) مجموعة من المؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 2/911.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/21.

بين المسنَدِ إليه والمسنَدِ الفعليِّ، تأكيدًا للحُكم، وإيرادِه على وجه الثّبوتِ، فإنّ صفةَ الظّلم مانعةٌ من تحقّقِ الهداية جريًا على ما تقتَضيه سنّتُه تعالى في ذلك، وجاء الإخبارُ بذلك في فاصلة الآيةِ ليكونَ أوقعَ في النّفس وأشبَهَ بالإيجاز لما وردَ في الآية الكريمة، وجعل المسندَ فعلًا للدّلالة على تجدّدِ النّفي واستمرارِه، فأفادَ جعْلُ النّفي بين المسنَدِ إليه والمسنَدِ الفعليِّ تحقيقَ الدّلالتَيْن معًا.

انتفاءُ الهدايةِ عن الظّالمين مؤكّدٌ، فهو حُكمٌ ثابتٌ دائمٌ مُتجدّدٌ

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارع: ﴿يَهۡدِي﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دخلَ النّفيُ على المضارع للدّلالة على استمرارِ النّفي وتجدّدِه، فانتفاءُ هدايةِ الظّالمين مستمرّ متجدّد في كلّ زمانٍ، لأنّ نفيَ المضارع بـ (لا) يدلُّ على دوام النّفي، لا نفْيِ الدّوام[1]، وأخرج ذلك مخرجَ السُّنّةِ الإلهيّةِ، "أي: مضتْ سنّتُه تعالى ألّا يكونَ الظّالمُ مُهتديًا في أعماله إلى الحقِّ والعدلِ، ولا إلى الرّحمةِ والفضلِ"[2].

انتفاءُ الهدايةِ دائمٌ متجدِّدٌ، لا ينقطعُ على الإطلاقِ

معنَى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾:

عبّر النّظمُ الكريمُ عن جنس القومِ الّذين يظلمون في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فالهدايةُ منفيّةٌ عن كلّ قومٍ ظالمين، وليس عن قومٍ بعينِهم، ويدخلُ تحته الّذين بنَوْا مسجدَ الضّرارِ، والمعنى: أنّ اللّه تعالى لا يَهدي كلَّ قوم إذا اتّصَفوا بالظّلمِ.

حُكمُ انتفاءِ الهدايةِ عامٌّ، لكلّ قومٍ ظالمين، في كلّ زمانٍ ومكانٍ

نُكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾:

آثَرَ النّظمُ الجليلُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ نفيَ الهدايةِ عنِ القوم الظّالمين، ولم يقل: (لا يهدي الظّالمين)؛ لأنّه أراد "الّذين لهم قوّةُ المحاولة لما يريدون"[3]، إشارةً إلى أنّ المذكورين لهم منَ القوّة ما يُمكّنُهم من فعْلِ ما يريدون؛ لأنّ لفظَ (القوم) يدلّ على

القومُ المتمكّنون في الظّلم، يُزاولونه جماعةً، دون خوفٍ ولا خَشيةٍ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/342.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/29.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/21.

الجماعة الّذين يقومون قَومةً واحدةً عند فزعِهم تعبيرًا عن قوّتِهم وتلاحمِهم، كما أنّ فيه إشارةً إلى أنّ القومَ زاولوا الظّلْمَ جماعةً.

عِلّةُ وصْفِهم بالظّلم ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

في قوله عزّ ذِكْرُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وصفَ القومَ بصفة الظّلم "إشارةً إلى تَعدّيهم، ووضْعِ الشّيء في غير موضعِه؛ حيث بنَوا مسجدَ الضِّرار؛ إذِ المساجدُ بيوتُ الله يجبُ أن يُخلَصَ فيها القصدُ والنّيّةُ لوجهِ الله وعبادتِه"[1]، كما أنّ فيه دلالةً على علّة انتفاءِ الهدايةِ عنهم، فإنّها كائنةٌ بسببِ صفةِ الظّلم الثّابتِ فيهم، فالآية ذمٌّ و"طعنٌ على هؤلاء المنافقين، وإشارةٌ إليهم، والمعنى: لا يَهديهم من حيث همُ الظّالمون"[2].

بـنـاءُ المسجدِ لغير رِضوان الله تعالى، انحرفَ بالمسجدِ عن غايتِه

معنى (أل) في: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عرّف ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالألف واللّام الدّالّةِ على الجنسِ أو العهدِ، فعلى إرادةِ الجنسِ يكونُ المرادُ بالظّالمين جنْسَ الظّالمين "فيدخلُ الّذين اتّخذوا مسجدًا دخولًا أوّليًّا"[3]، ويَحتمِلُ إرادةَ العهد إشارةً إلى هؤلاء المنافقين، فيكونُ من "وضْعِ الظّاهر موضِعَ الضّميرِ للتّسجيل على ظُلْمِهم لأنفُسِهم، وللإشارة إلى علّةِ الحُكم"[4].

الهدايةُ منقطعةٌ عن كلّ ظالمٍ، في كلّ زمانٍ عبْرَ تاريخِ الأُمَمِ

نُكتةُ حذْفِ متعلّق لفظِ (الظّلم):

جاء وصفُ الظّلم في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مطلَقًا منَ القيدِ، ولم يجعلْه ظلمًا خاصًّا بنوعٍ ما؛ إذ لم يقل: (ظالمين لأنفسهم)، أو (يظلمون النّاس)، فجعلَه مطلقًا؛ تعميمًا للحُكم، وللدّلالةِ على أنّ انتفاءَ الهدايةِ متعلّقٌ بثبوتِ صفةِ

بيانُ أنّ انتفاءَ الهدايةِ، متعلّقٌ بـثُـبـوتِ صفةِ الظّلمِ، بالدّلالةِ على عمومِها

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/507.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/86.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/342.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/342.

الظّلم، فهو "عامٌّ يشملُ هؤلاء الظّالمين الّذين بنَوا مسجدَ الضّرارِ وغيرَهم"[1].

نُكتة الفصْلِ: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ﴾:

جاءتِ الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ مستأنَفةً لذِكْر سوءِ عواقبِه بعد أن ذكرَ سوءَ الباعثِ عليه[2]، "ولمّا كان ما تقدَّم غيرَ قاطعٍ في إخْرابِه لِما ثبتَ للمساجدِ منَ الحُرْمة، استَأْنَف الإخبارَ عن أنّه لا يُعدُّ في عِداد المساجد بوجْهٍ، وإنّما هو في عِدادِ بيوتِ الأصنام فهو واجبُ الإعدام"[3]. ويُضاف إلى ذلك أنّه يجوزُ أن يُرادَ به الاستئنافُ البيانيُّ، جوابًا عن سؤالٍ نشأ عن ذِكرِ مسجدِهم والنّهي عنِ القيام به، فكأنّه قيل: هلِ ارْعَوَوْا بعد العزوفِ عنِ الصّلاة في مسجدِهم وهدْمِه؟ فأُجيب: بأنّهم مُستمرّون على ضلالِهم.

استئنافٌ لبيانِ إيغالِهم بالرَّيبِ، بعد تبيُّنِ حُكْمِ بنائِهم

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارع في: ﴿لَا يَزَالُ﴾ وبيانُ اسمِها وخبرِها:

عبَّرَ بالفعل المضارعِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ للدّلالةِ على رسوخِ النّفاقِ في قلوبهم، فهم كانوا مُنافقين شاكِّينَ في دينهم، ولكنّهم ازدادوا نفاقًا بعد هدْمِه، وازدادوا تصميمًا على الكفرِ ومَقْتًا للإسلام لِما أصابَهم منَ الغيظِ بسبب هدْمِه[4]، وخبرُ الفعلِ (لا يزال) قولُه تعالى: ﴿رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾، أو أنّ الخبرَ مضافٌ محذوفٌ تقديرُه: سببَ ريبةٍ؛ والمعنى: "لا يزال هدْمُه سببَ شكٍّ ونفاقٍ زائدٍ على شكِّهم ونفاقِهم لا يزولُ وَسْمُه عن قلوبهم، رَسَخ ذلك في قلوبهم وازدادوا نفاقًا"[5].

عدمُ انفكاكِهم عنِ النّفاقِ، لاستمرارِ تعلُّقِ قلوبِهم بمسجدِهم المشؤومِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/35.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/35 - 36.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/21.
(4) القنّوجيّ، فتح البيان: 5/402.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/313، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/449.

نُكتةُ إضافةِ البُنيانِ: ﴿بُنۡيَٰنُهُمۡ﴾:

أُشْـرِبُـوا في قلوبِهمُ النّفاقَ، فجاءتِ الأفعالُ عاكسةً لِما في القلوبِ من ضلالٍ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ﴾ أضافَ البناءَ إلى الضّميرِ العائدِ على المنافقين الظّالمين، إشارةً إلى أنّه "نفسُ المبنَى، وهو المسجدُ"[1]، كما فيه تصريحٌ وتأكيدٌ على نزعِ صفةِ المسجدِ عنه بإضافته إليهم بعد أن بيَّن ضلالَهم ووَصَفَهم بالقوم الظّالمين، فهذا البناءُ هو بناءٌ لهؤلاء الظّالمين الضّالّين؛ فلا قدسيَّةَ له ولا مكانةَ معتبَرة.

فائدةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصِلتِه ﴿ٱلَّذِي بَنَوۡاْ﴾:

وضْفُه بالموصولِ (الـذي)، إشارةً إلى أنّه بُنيَ على أساسٍ واهنٍ

وُصفَ البُنيانُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةً﴾ بالاسمِ الموصولِ المتضمِّنةِ صِلتُه فِعلَ البناءِ؛ تأكيدًا وتصريحًا بأنّ المرادَ منَ البناءِ مسجدُهم، كما أنّ فيه احترازًا عن كونِ إضافةِ البُنيانِ إليهم في قوله ﴿بُنۡيَٰنُهُمُ﴾ قد تدلُّ على التّمكُّن منَ التّصرّف فيه[2]، وكذلك "للإيذانِ بكيفيّةِ بنائِهم له وتأسيسِه على أوهنِ قاعدةٍ وأوهَى أساسٍ، وللإشعارِ بعلّةِ الحُكم، أي: لا يزال مسجدُهم ذلك مَبْنيًّا ومَهْدومًا"[3].

نُكتةُ الإخبارِ بالمصدر:

تَـجَـلّي الـشّـكِ والـرّيـبِ في بـنـيـانِـهـم، تَـشَـخَّـصَ به البنيانُ، وبرزَ ما فيه من هوانٍ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ جاء خبرُ الفعلِ النّاقصِ مصدرًا وهو قوله: ﴿رِيبَةً﴾ "مبالغةً كالوصفِ بالمصدر"[4]؛ إذِ الإخبارُ بالمصدر هنا دلَّ على أنّ بنيانَهم هو الرّيبةُ ذاتُها، فتجسَّدَ شكُّهم ونفاقُهم بهذا البنيانِ، وهذا مبالغةٌ ظاهرةٌ في شدّة نفاقِهم ورسوخِ النّفاق في قلوبِهم، "والمعنى: أنّ بناءَ ذلك البنيانِ صار سببًا لحصول الرّيبةِ في قلوبهم، فجَعَل نفسَ ذلك البنيانِ ريبةً؛ لكونِه سببًا للرّيبةِ"[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/22.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/86، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/342.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/104.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/36.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/149، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/104.

بَلاغةُ الجناس: ﴿بُنْيَٰنُهُمُ﴾ ﴿بَنَوْاْ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، وتَكرارُ اللّفظ الثّاني إشارةٌ إلى ما في اللّفظ الأوّلِ من متعلّقاتٍ، وهو البناءُ للضِّرارِ والكفرِ والإرصادِ والتّفريقِ، كما فيه تأكيدٌ على ذمِّهم بتَكرار سبب الذّمِّ، وما جرى لهم من فضيحةٍ به.

تَـكـرارُ الـبـنـاءِ تأكيدٌ على سببِ ذمِّـهـم، وعـلّـةِ هوانِهم

نُكتةُ تنكيرِ: ﴿رِيبَةً﴾:

جاء لفظُ الرّيبةِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً﴾ نكرةً تعظيمًا وتهويلًا للشّكِّ الّذي كان يتردَّدُ في قلوبهم، ولو لم يكنْ بذلك الهَوْلِ لَما كان مستمرًّا؛ كما أشعرَ الفعلُ (لا يزال)، فهي ريبةٌ دائمةٌ مستمرّةٌ لا تنقطعُ؛ لشدَّتِها ورسوخِها في قلوبهم.

الشّكُّ الّذي ملأ قـلـوبَـهـم، شكٌّ عـظـيـمٌ لا يـزولُ مع الأيّامِ

معنَى ﴿فِى﴾: ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ عبَّر عن تمكُّن الرّيبةِ والشّكِّ من قلوبهم بحرف الجرِّ (في) الدّالِّ على الظّرفيّةِ المجازيّةِ، ومعلومٌ أنّ الرّيبةَ تكونُ في القلب، فالتّصريحُ بكونِها مستقرّةً في القلب تأكيدٌ على هذه الكَيْنونةِ والاستقرارِ والتّغلغُلِ في القلب والتّمكُّنِ فيه.

الـشّـكُّ مستقرٌّ في قـلـوبـهـم لا يـــزولُ، مهما حاولَ الرّسولُ

نُكتةُ الاستثناءِ، المصدَّرِ بالأداةِ ﴿إِلَّآ﴾:

الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾، جاء للاستثناء مِنَ الزّمن المتطاوِلِ المستمرِّ؛ لأنّ الفعلَ ﴿لَا يَزَالُ﴾، يدلُّ على الاستمرارِ، فاستَثْنَى من هذا الاستمرارِ وقتَ التّقطيع، فالاستثناءُ "من أعمّ الأزمنةِ، أي: وقتَ أنْ تَقَطّعَ، وهو في محلّ النّصب على الظّرف"[1]، أي أنّ المصدرَ المؤوَّلَ من ﴿أَن تَقَطَّعَ﴾ مضافٌ إليه والمضافُ محذوفٌ تقديرُه: وَقْتَ تقطُّعِ قلوبِهم. ويدلُّ ذلك على أنّ الرّيبةَ باقيةٌ في قلوبهم أبدًا، حتّى

دَلالـةُ الاستثناءِ عـلى الـتّـهـكُّـم، مـن بـابِ تأكيدِ الشّيءِ بما يُشبهُ ضدَّه

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/449.

إنّهم سيموتون على هذا النّفاقِ[1]، فيكونُ هذا الاستثناءُ دالًّا على التّهكُّم "وهو من قَبيل تأكيدِ الشّيء بما يُشبه ضدَّه كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: 40]، أي: يبقَى ريبةً أبدًا إلّا أن تَقطَّعَ قلوبُهم منهم وما هي بمقطَّعةٍ"[2].

فائدةُ التّعبيرِ بالمصدَرِ المؤوَّلِ: ﴿أَن تَقَطَّعَ﴾:

إنّما عبّر في قوله عزّ ذِكْرُه: ﴿أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ بالمصدرِ المؤوّلِ دون المصدرِ الصّريحِ، لِما في الفعل من دلالةٍ على الحدوث والتَّجَدُّدِ، كما أنّ التّصويرَ في الفعل المضارع مرادٌ في الآية؛ حيث يُصوّرُ شدّةَ تقطُّعِ قلوبهم إيماءً إلى قوّة ثُبوتِ الرّيبةِ في قلوبهم ورُسوخِهم في النّفاق.

تصويرُ تقطيعِ قلوبِهم بالفعل المضارعِ، والغرضُ بيانُ قوّةِ اعتقادِهم بالنّفاقِ

دَلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿تَقَطَّعَ﴾، من حيث المادّةُ والصّيغةُ:

قولُه تعالى: ﴿أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ عبَّر فيه، عن تقطيع قلوبِهم بصيغة التّفعُّلِ للدّلالةِ على كثرة التّقطيعِ، ومعلومٌ أنّ الكثرةَ في تقطيع القلب المُؤدّي إلى الموت لا يحتاجُ إلى التّكثير؛ فإنّما عبّرَ عن ذلك بالتّكثير مبالغةً في التّقطيعِ تعبيرًا عن شدّة تعلُّقِ قلوبهم بالنّفاقِ والرّيبةِ، بحيث لا تنفكُّ عنه حتّى لو قُطِّعتْ تقطيعًا شديدًا، فعبّر بذلك للدّلالة "على استمرار هذه الرّيبةِ ودوامِها وهو قوله: ﴿أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ قِطعًا وتتفرّقَ أجزاءً إمّا بالموت أو بالسّيف، وقيل في القبور أو في النّار. والمقصودُ أنّ هذه الرّيبةَ دائمةٌ لهم ما داموا أحياءً، ويجوزُ أن يكون ذِكرُ التّقطّعِ تصويرًا لحال زوالِ الرّيبةِ، وقيل: معناه: إلّا أن يتوبوا توبةً تتقطّعُ بها قلوبُهم نَدمًا وأَسفًا على تفريطِهم"[3]، فإنْ أُريد معنَى التّوبة فيكونُ التّكثيرُ دالًّا على شدّة النّدمِ تعبيرًا عن صدْقِ التّوبةِ.

التّعبيرُ عن شدّةِ تعلُّقِ قلوبهم بالنّفاق، الّذي لا تنفكُّ عنه حتّى لو قُطِّعت تقطيعًا

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/149.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/36.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 5/402.

فائدةُ إظْهارِ القلوبِ، في موضعِ إضمارِها:

النّفاقُ راسخٌ في قلوبِهم، ثابتٌ لا يـزولُ، مهما تغيّرتِ الظّروفُ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أظهَر موضعَ الإضمار، فأظهر القلوبَ وكرَّر ذِكرَها ولم يَقُل: (ريبة في قلوبهم إلّا أن تقطّع)؛ وذلك تصريحٌ بأن التّقطُّع المذكورَ يتعلَّقُ بالقلوب لا بشيءٍ آخرَ، فأظهرَ القلوبَ حتّى لا يقعَ لُبْسٌ بمرجعِ الضّمير، فقد يُفهمُ أنّ التّقديرَ: (تَقطَّعُ الرّيبةُ عن قلوبهم)، فأراد أن يبيّنَ أنّ التّقطّعَ المذكورَ يتعلّقُ بالقلوب لا بغيرِها، كما أنّ فيه اهتمامًا بتَكرار ذِكْرِ القلوب، وهذا الاهتمامُ يُفضي إلى تأكيدِ ثبوتِ النّفاق في قلوبهم، بحيث أعاد ذِكْرَها في سياق التّقطيعِ.

بَلاغةُ الكنايةِ عن صفةٍ في تقطيعِ القلوبِ:

رُسوخُهم في النّفاق لا يزولُ إلّا بموتِهم

في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ عبّرَ بتقطيع القلوب عن رسوخ الرّيبةِ في قلوبهم، فهذا التّعبيرُ "كنايةٌ عن أنّ الرّيبةَ باقيةٌ متمكِّنةٌ فيها غيرُ زائلةٍ، فلو صَوَّرَ أنّ قلوبَهم تَقطَّعُ وتفرَّقُ قِطعًا حتّى تخرج الرّيبةُ منها؛ لزالت، وأمّا ما دامت سالمةً متجمّعةً فالرّيبةُ باقيةٌ متمكّنةٌ فيها"[1]، فهي كنايةٌ عن صفة الرّسوخِ في النّفاق، والغرَضُ تصويرُ المعنى المجرّدِ بمعنًى محسوسٍ تأكيدًا للمعنى ومبالغةً فيه.

دَلالةُ الواو على الاستئنافِ في الجملةِ الاسميّة:

بيانُ أنّ الاستئنافَ بما أخبرَ به، إنّما هو من علْمِه تعالى وحِكمتِه

افتتح قولَه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بواو الاستئنافِ، والجملةُ مستأنَفةٌ[2]، لمّا أخبرهم بما لا طريقَ للعلمِ به إلّا منَ الله تعالى، وهو كونُ الرّيبةِ باقيةً في قلوبهم إلّا أن تتقطّع تلك القلوبُ؛ استأنفَ ليبيِّنَ أنّ ذلك إنّما هو من علْمِ الله تعالى الّذي يُحيط بعلْمه بكلّ شيءٍ. وافتتحَ الجملةَ بلفظ الجلالةِ تعظيمًا لعلْمِه وحكمته، فما نُسب إلى الله تعالى كان منَ العظمةِ على أقصاها. ويمكنُ أن تكون الجملةُ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/371.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/38.

حاليّةً على معنى: والحالُ فيما يصيبُهم أنّ الله عليمٌ بحالهم، حكيمٌ بجعْلِ هذه العقوباتِ عليهم.

فائدةُ تّذييلِ الآية بالجملةِ الاسميّةِ:

بيانُ أن يكونَ بناءُ مسجدِ الضِّرارِ، سببَ حسرةٍ عليهم في الدّنيا والآخرة

الجملة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، اسميّةٌ تفيدُ تأكيدَ مضمونِها، وهو الإخبارُ بعلم الله تعالى وحِكمتِه، وعقَّبَ بها على الإخبار عن دوامِهم بالرّيبةِ والشّكِّ والحسْرةِ على خراب بُنيانِهم، فهي "تذييلٌ مناسبٌ لهذا الجَعْل العجيبِ والإحكام الرّشيقِ؛ وهو أن يكون ذلك البناءُ سببَ حسْرةٍ عليهم في الدّنيا والآخرة"[1].

فائدةُ التّعبيرِ بلفظِ الجلالة:

لفظُ الجلالةِ يخلَعُ على مضمون جُملتِه التّعظيمَ

افتُتِحَ قولُه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بلفظِ الجلالة تعظيمًا لعلمِه وحكمتِه، فما نُسبَ إلى الله تعالى كان منَ العظمة على أقصاها، وكونُ الجملة اسميّةً فإنّها تدلّ على تأكيد مضمونِها، ولفظُ الجلالة حيث وردَ فإنّه يؤثّرُ بالتّعظيم على ما يأتي في حيِّز الجملةِ، فقولُه: ﴿وَٱللَّهُ﴾ "أي: الّذي له الإحاطةُ بكل شيءٍ، ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بالغُ العلْمِ بكلِّ معلومٍ ﴿حَكِيمٌ﴾ فهو يُتقنُ ما يأمرُ به"[2].

سِرُّ تذْييلِ الآية بهذيْن الاسميْن الجليلَيْن: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

ما أخبرَ اللهُ تعالى عنه، فهو عن علْمٍ، وما حكمَ به فهو عن حكمةٍ

خُتم قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بالعلمِ والحكمةِ للدّلالة على أنّ ما أخبر به إنّما هو عن علْمِه ﷻ فهو حتمٌ لا يُشَكُّ فيه، وأنّ ما حَكمَ به عليهم إنّما يصدرُ عن حكمةٍ بوضْع كلِّ شيء موضِعَه، فهو ﷻ "﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالِهم، ﴿حَكِيمٌ﴾ في الأحكام الّتي يحكمُ بها عليهم"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/36.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/22.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/215.

نُكتةُ تنكيرِ الاسمَيْن الجليلَيْن: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ جاء الخبرانِ عن صفاتِ اللّه تعالى بالتّنكير دونَ التّعريف، تعظيمًا لصفتي العلم والحكمة المتعلِّقتَيْن به ﷻ؛ فعلمُ اللّه تعالى علمٌ عظيمُ الشّأن، وكذلك حكمتُه.

علْمُ الله تعالى وحكمتُه عظيمٌ شأنُهما، نافذٌ في الخلْقِ مرادُهُ بمُقتضاهُما

سرُّ تقديمِ (العلمِ) على (الحكمةِ):

في قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قدّمَ العلمَ على الحكمة؛ لأنَّ الأحكامَ الّتي نزلت في شأن مسجدِ الضِّرار إنّما نزلت لعلْمِ اللّه تعالى بسوء نواياهُم وخُبثِ مقاصدِهم، فلمّا حكمَ عليهم بما حكمَ، كانت تلك الأحكامُ لها غاياتٌ وأغراضٌ ساميةٌ لجماعة المؤمنين وللحقّ، فكانت مبنيّةً على العلمِ.

عَلِمَ الله سوءَ نواياهُم وخُبثَ مقاصدِهم، فحكمَ عليهم بما حكمَ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحَلِفُ والقَسَمُ:

"القسَمُ أبلغُ من الحلِف؛ لِأنّ معنى قولنا: أُقسم باللّه، أنّه صار ذا قسمٍ باللّه، والقَسْمُ: النَّصيبُ، والمرَادُ أنَّ الَّذي أقسمَ عليه منَ المَال وغيرِه قد أحرزَه ودفع عنه الخصمَ باللّه. والحَلِف من قولك: سيف حَليف؛ أي: قاطعٌ ماضٍ، فإذا قلتَ: حَلَف باللّه، فكأنّك قلتَ: قطعَ المُخَاصمَة باللّه. فالأوّل أبلَغُ؛ لأنَّهُ يتَضَمَّن معنى الآخر مع دفع الخصم، ففيه مَعْنيانِ، وقولُنا: حلف، يُفيدُ معنًى واحِدًا، وهو قطعُ المُخاصمَة فقط"[1]، فعبّر في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ بالحلف؛ تعبيرًا عن أنّهم أرادوا قطْعَ المخاصمة بإظهار أنفُسِهم بمظهرِ الصّادق.

الـقـسَـمُ أبـلـغُ مـنَ الـحـلِـفِ، والحلِفُ أنسبُ في المخاصمةِ

(يشهدُ) و(يعلمُ):

الفرقُ بين الشّهادة والعلمِ "أنّ الشَّهَادَة أخصُّ منَ العلم، وذلك

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 56.

أنَّها بوُجود الأشْيَاء لا من قبل غيرها، والشَّاهِد نقيضُ الغائِب في المعنَى؛ ولذا سُمّي ما يُدْرَكُ بالحواس ويُعلمُ ضَرورَةً: شاهدًا، وسُمِّيَ ما يُعلم بِشَيْءٍ غَيره وهو الدّلَالَةُ: غائِبًا؛ كالحياة والقُدْرَة، وسُمِّي القَديمُ شاهدًا لكلّ نجوى لأنَّه يَعلمُ جَميع الموجودات بِذاتِهِ، فالشّهادةُ علمٌ يتناولُ المَوْجودَ، والعلمُ يتَناوَلُ المَوْجودَ والمعدومَ"[1].

الشّهادةُ العلمُ بـمـا يُـدرَكُ بالحواسِّ، وهي أخصُّ مِنَ العلمِ

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ عبّرَ بالشّهادة لأنّ كذِبَهم كان ظاهرًا مُدرَكًا بالحواسِّ وليس خفيًّا، فكانتِ الشّهادةُ أبلَغَ في التّعبير عنه.

(لا تَقُمْ فيه) و(ولا تُصَلِّ):

قولُه تعالى: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾، وفيه جاء النّهيُ عنِ الصّلاة في المسجد، بطريقة المجازِ المرسَلِ طلبًا للمبالغةِ في النّهي عنِ الصّلاة في مسجد الضِّرارِ، وإنّما جاء النّهيُ عنِ القيام الّذي يستلزمُ الصّلاةَ، دونَ التّصريح بالنّهي عنِ الصّلاة؛ مبالغةً في النّهي عنِ الصّلاة فيه، ولم يقل: (لا تصلِّ فيه)، إذ لو قال ذلك لَدلَّ على أنّ التّحريمَ لا على وجه المبالغةِ والتّأكيدِ، فبالَغَ في النّهْي بذكرِ القيامِ الّذي يشملُ جميعَ أعمالِ الصّلاة. وكذلك فإنّه لو عبّرَ بالصّلاة لكان محتمِلًا المعنى اللّغويَّ، فيكونُ المعنى عندئذ: لا تدعُ لهم فيه وحسب.

النّهيُ عنِ القيامِ فيه للمبالغةِ، والـنّـهـيُ عـنِ الـصّـلاةِ نـهـيٌ عـنِ الـدّعـاء للمنافقين

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ﴾ [التّوبة: 84] نَهْيٌ عنِ الصّلاة على المنافقين ودفنهم، فنهاه ﷺ عن أن يصلّيَ على أحدٍ مات من هؤلاء المنافقين الّذين تخلّفوا عنِ الخروج معه، وبأن لا يتولّى دفنَه وتقبيرَه[2]، فالمرادُ منَ القيام ليس قيامَ الصّلاةِ؛ بل أعمالَ الدّفنِ والدّعاءِ للميّت والشّهادةِ له، وأمّا

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 95 - 96.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/405.

النّهْيُ عنِ الصّلاةِ على المنافقين فجاء مصرَّحًا فيه بلفظ الصّلاةِ ليشملَ الصّلاةَ المعروفةَ، كما يشملُ الدّعاءَ لهم، فنهاه عن كلِّ ذلك.

الرِّيبةُ والشَّكُّ والألفاظ المقاربة:

الرَّيبُ أخصُّ منَ الشّكِّ، وأفصحُ في البيانِ، عمّا اعتلجَ في قلوبهم منَ القلقِ والحسْرةِ

الرّيبُ شكٌّ مع تُهَمَةٍ[1]، وأصلُ الرّيبِ: القلقُ واضطرابُ النّفس، ولمّا كان الشّكُّ يلزمُه اضطرابُ النّفس وقلقُها غَلَب عليه الرّيبُ فصار حقيقةً عُرفيّةً، يُقال: رابَه الشّيءُ إذا شكّكَه، أي: أوجبَ الشّكَّ في حاله[2]. وفي الآية الكريمة: عبّرَ عن قلقِهم وحسرتِهم ونفاقِهم بالرّيبة فقال: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾، والمرادُ بالرّيبةِ في الآية: الشّكُّ والنّفاقُ، والحسْرةُ والنّدامةُ، والحزازةُ والغيظُ في قلوبهم[3]. وكلُّ هذه المعاني حاضرةٌ في قلوبِهم، ولو عبّرَ بالشّكِّ لكان المدلولُ الشّكَّ وحسبُ، والحالُ أنّهم كانوا مُرتابين قلِقين، أخذتهمُ الحسْرةُ والنّدامةُ على مسجدِهم وأصرّوا على ما هم فيه وامتلؤوا غيظًا، فالتّعبيرُ بالرّيبةِ في هذا الموضعِ من بلاغةِ القرآنِ الكريم.

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 99.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/222.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/301.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»